

الباب الثاني
ذكت ونوادر

obeikandi.com

الباب الثاني

ذكت ونوادير

(وما بكم من نعمة فمن الله) (١٢٦)

فصل

قال أسامه بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن مقلد ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين : هذه طرف إخبار حضرت بعضها وحدثني بعضها من أثق به جعلتها الحاقا في الكتاب ، اذ ليست مما قصدت ذكره فيما تقدم ، وابدأت منها بإخبار الصالحين ، رضي الله عنهم أجمعين .

حدثني الشيخ الإمام الخطيب سراج الدين أبو طاهر ابراهيم بن الحسين بن ابراهيم خطيب مدينة اسعرد (١٢٧) بها في ذي القعدة سنة اثنتين وستين وخمس مائة : قال حدثني ابو الفرج البغدادي (١٢٨) قال : « شهدت مجلس الشيخ الامام ابي عبد الله محمد البصري ببغداد وحضرته امرأة ، فقالت : ياسيدي اذك كنت ممن شهد في صداقي ، وقد فقدت كتاب المهر ، واسألك أن تتفضل علي تقيم الشهادة بمجلس الحكم ، فقال : ما أفعل حتى تأتيني بحلاوة ، فوَقفت المرأة وهي تظن أنه يمزح بقوله ، فقال : لا تطلبي ، لا أمضي معك الا أن تأتيني بالحلاوة ، فمضت ثم عادت فأخرجت من جيبها من تحت الازار قرطاسا فيه حلاوة يابسة ، فتعجب أصحابه من طلبه الحلاوة مع زهده وتعففه ، فأخذ القرطاس وفتح ورمى بالحلاوة قطعة قطعة حتى فرغ القرطاس ، ونظره فاذا هو كتاب صداق المرأة الذي فقدته ، فقال : خذي صداقك ، فهذا هو فاستعظم من حضره ذلك ، فقال : كلوا الحلال وقد فعلتم ذلك وأكثر منه . »

حدثني الشيخ أبو القاسم الخضر بن مسلم بن قاسم الحموي بها يوم الاثنين سلخ ذي الحجة سنة سبعين وخمس مائة قال : قدم علينا رجل شريف من أهل الكوفة فحدثنا ، قال : حدثني أبي قال : كنت أدخل على قاضي القضاة الشامي الحموي فيكرمني ويجلني فقال لي يوما : « أنا أحب أهل الكوفة لشخص واحد منهم ، كنت بحماة وأنا شاب وقد توفي بها عبد الله بن ميمون الحموي ، رحمه الله ، فقالوا : أوص ، فقال : « إذا أنا مت وفرغتم من جهازي أخرجوني إلى الصحراء ويطلع إنسان على الرابية التي تشرف على المقابر ، وينادي : يا عبد الله بن القبيس مات عبد الله بن ميمون ، فاحضره وصل عليه » فلما مات فعلوا ما أمرهم به ، فاقبل رجل عليه ثوب خام ومئزر صوف من الجانب الذي نادى منه المنادي ، وجاء حتى صلى عليه ، والناس قد بهتوا لا يكلمونه ، فلما فرغ من الصلاة انصرف راجعا من حيث جاء ، فتلأوموا إذ لم يتمسكوا به ويسألونه فسعوا في أثره ، ففاتهم ولم يكلمهم كلمة واحدة .

وقد حضرت ما يقارب ذلك في حصن كيفا ، وكان في مسجد الخضر رجل يعرف بمحمد السماع له زاوية إلى جانب المسجد يخرج وقت الصلاة يصلي جماعة ، ويعود إلى زاويته ، وهو رجل من الأولياء ، فحضرت به - وهو بالقرب من منزلي - الوفاة ، فقال : « كنت أشتهي على الله تعالى أن يحضرني شيعي محمد البستي » فما جمع له جهاز غسله وكفنه إلا وشيخه محمد البستي عنده ، فتولى غسله وخرج خلفه تقدمنا صلي عليه ، ثم نزل في زاويته فأقام بها ليلة وهو يزورني وأنا أزوره ، وكان رحمه الله ، عالما زاهدا مارأيت ولا سمعت بمثله ، كان يصوم الدهر ولا يشرب ماء ولا يأكل خبزا ولا شيئا من الحبوب ، إنما يفرط على رمانتين أو عذقود عنب أو تفاحتين ، ويأكل في الشهر مرة أو مرتين لقيمات من لحم مقلي ، فقلت له يوما : « يا شيخ أبا عبد الله ، كيف وقع لك أن

لاتأكل خبزاً ولا تشرب ماء وأنت صائم أبدا ؟» قال : « صمت وطويت فوجدتني أقوى على ذلك ، فطويت ثلاثاً وقلت : اجعل ما أكله كالميتة التي تحل للمضطر بعد ثلاث ، فوجدتني أقوى على ذلك فتركت الأكل وشرب الماء ، فألفت النفس ذلك ، وسكنت إليه فاستمررت على ماأنا عليه .»

وكان بعض أكابر حصن كيفا قد عمل للشيخ زاوية في بستان جعله له ، فحضر عندي في أول شهر رمضان وقال : « قد جئت مسـودعا » قلت : « والزاوية التي قـد أعدت لك والبستان ؟» قال : « يا أخي ، مالي حاجة فيهما ، ولا أقيم » وودعني ومضى ، رحمه الله ، وذلك سنة سبعين وخمس مائة .

وحدثني الشيخ أبو القاسم الخضر بن مسلم بن قسيم الحموي بحماسة في التأريخ المتقدم ، أن رجلاً كان يعمل في بستان لمحمد بن مسعر ، رحمه الله ، أتى أهله وهم جلوس على أبواب دورهم بـالمعرة ، فقـال : « سمعت السـاعة عجباً !» قالوا : « وما هو ؟» قال : « مر بي رجل معه ركوة طلب مني فيها ماء فأعطيته فجدد وضوءه ، وأعطيته خيارتين فأبى أن يأخذهما ، فقلت : « ان هذا البستان نصفه لي بحق عملي ، ولحمد ابن مسعر نصـفه بـمالك » فقـال : « أحـجـج العام ؟» قلت : « نعم » قال : « البارحة بعد انصرافنا من الوقفة مات وصلينا عليه » فخرجوا في اثره ليستفهموا منه قرأوه على بعد لايمكنهم لحاقه ، فعادوا وورخوا الحديث فكان الأمر كما قال .

حدثني الأجل شهاب الدين أبو الفتح المظفر بن أسعد بن مسعود ابن بختكين بن سبكتكين مولى معز الدولة ابن بويه بالموصل في ثامن عشر شهر رمضان سنة خمس وستين وخمس مائة قال : « زار المقتفي بأمر الله أمير المؤمنين ، رحمه الله ، مسجد صندوبياء بظاهر الأنبار على الفرات الغربي ، ومعه الوزير وأنا

حاضر ، فدخل المسجد وهو يعرف بمسجد أمير المؤمنين علي ، رضوان الله عليه ، وعليه ثوب دمياطي وهو متقلدا سيفاً حليته حديد لا يدري أنه أمير المؤمنين الا من يعرفه ، فجعل قيم المسجد يدعو للوزير ، فقال الوزير : « ويحك ! ادع لأمر المؤمنين ، فقال له المقتفي رحمه الله : سله عما يذفع ، قل له : ما كان من المرض الذي كان في وجهه ، فإنني رأيت في أيام مولانا المستظهر ، رحمه الله ، وبه مرض في وجهه » وكان في وجهه سلعة قد غطت أكثر وجهه فاذا أراد الأكل سدها بمنديل حتى يصل الطعام إلى فمه ؟ فقال القيم : كنت كما تعلم ، وأن أتردد إلى هذا المسجد من الأنبار ، فلقيني انسان فقال : لو كنت تتردد إلى فلان - يعني مقدم الأنبار - كما تتردد إلى هذا المسجد لاستدعى لك طبيباً يزيل هذا المرض من وجهك ، فخامر قلبي من قوله شيء ضاق له صدري ، فذمت تلك الليلة فرأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه وهو في المسجد يقول : ما هذه الخضرة ؟ - يعني خضرة في الأرض - فشكوت إليه مابي ، فاعرض عني ، ثم راجعته وشكوت إليه ما قاله لي ذلك الرجل فقال : أنت ممن يريد العاجلة ثم استيقظت والسلعة مطروحة إلى جانبي وقد زال ما كان بي ، فقال المقتفي ، رحمه الله : صدق ثم قال لي : تحدث معه وأبصر ما يلتمسه واكتب به توقيعاً وأحضره لأعلم عليه ، فتحدثت معه ، فقال : « أنا صاحب عائلة وبنات ، وأريد في كل شهر ثلاثة دنانير » فكتبت عنه مطالعة وعذونها الخادم : قيم مسجد علي ، فوقع عليها بما طلب وقال لي : امض ثبتها في الديوان ، فمضيت ولم أقرأ منها سوى : يوقع له بذلك » وكان الرسم أن يكتب لصاحب المطالعة توقيع ويؤخذ منه ما فيه خط أمير المؤمنين ، فلما فتحها الكاتب ليذللها وجد تحت « قيم مسجد علي » بخط المقتفي أمير المؤمنين - صلوات الله عليه : ولو كان طلب أكثر من ذلك لوقع له به »

وحدثني القاضي الامام مجد الدين أبو سليمان داود بن محمد بن الحسن بن خالد الخالدي ، رحمه الله ، بظاهر حصن كيفا يوم

الخميس ثاني وعشرين ربيع الأول سنة ست وستين وخمسمائة
عن من حدثه ان شيخا استأذن على خواجا بزرگ (١٢٩) رحمه
الله ، فلما دخل عليه رآه شيخا مهيبا بهيا فقال : « من أين
الشيخ ؟ » قال : « من غربة » قال : « ألك حاجة ؟ » قال : « أنا رسول
رسول الله صلى الله عليه وسلم » قال : « من أنت ؟ » قال : « أنا
شاه » قال : « يا شيخ ، أي شيء هذا الحديث ؟ » قال : « إن
أوصلتني إليه بلغته الرسالة ، والا فأنا لأزول حتى اجتمع به
وأبلغه مامعي » فدخل خواجا بزرگ على السلطان فأعلمه بما قاله
الشيخ فقال : « أحضروه » فلما حضر قدم للسلطان مسواكا
ومشطا وقال له : « أنا رجل لي بنات ، وأنا فقير لا أقدر على
جهازهن وتزويجهن ، وكل ليلة أدعو الله تعالى أن يرزقني
ما أجهزن به ، فذمت ليلة الجمعة من شهر كذا ودعوت الله سبحانه
بمعونتي عليهن ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرى
النائم فقال لي : « أنت تدعو الله تعالى أن يرزقك ما تجهز به
بناتك ؟ » قلت : نعم يارسول الله ، فقال : امض الى فلان
- وسماه - فمر ملك شاه - يعني السلطان - وقل له : قال لك
رسول الله صلى الله عليه وسلم جهز بناتي ، فقلت : يارسول
الله ، إن طلب مني علامة ما أقول له ؟ قال : قل له بعلامة أذك كل
ليلة عند النوم تقرأ سورة تبارك » فلما سمع ذلك السلطان
فقال : هذه علامة صحيحة ، وما أطلع عليها غير الله تبارك
وتعالى ، فان مؤدبي أمرني أن أقرأها كل ليلة عند النوم ، وأنا
أفعل ذلك » ثم أمر له بكل ما طلبه لتجهيز بناته وأجزل عطيته
وصرفه .

ويشبه هذا الحديث ما سمعته عن أبي عبد الله محمد بن فاتك
المقريء قال : كنت أقرأ يوما على أبي بكر بن مجاهد رحمه الله
المقريء ببغداد ، ان ورد عليه شيخ عليه عمامة رثة وطيأسان وثياب
رثة ، وكان ابن مجاهد يعرف الشيخ فقال له : ايش كان من خبر
الصبية ؟ قال : « يا أبا بكر جاءتني البارحة ابنة ثالثة فطلبت مني
أهلي دانقا يشترون به سمنا وعسلا يحذكونها به فلم أقدر

عليه ، فبت مهموما ، فرأت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فيما يرى النائم ، فقال : لاتغتّم ولا تحزن ، واذا كان غدا فادخل علي علي بن عيسى وزير الخليفة فأقره مني السلام وقل له : بعلامة انك صليت علي عند قبري أربعة آلاف مرة ادفع لي مائة دينار عينا »

فقال ابو بكر بن مجاهد : يا أبا عبد الله في هذا فائدة ، وقطع علي القراءة وأخذ بيد الشيخ وقام فدخل به علي بن عيسى ، فرأى علي بن عيسى مع ابن مجاهد شيئا لم يعرفه فقال : من أين لك يا أبا بكر هذا ؟ فقال يدنيه الوزير ويسمع منه كلامه ، فأدناه وقال : ماخطبك يا شيخ ؟ فقال الشيخ : ان أبا بكر ابن مجاهد يعلم أن لي ابنتين ، والبارحة جاءتني ثالثة ، فطلبت مني أهلي دانقا يشترون به عسلا وسمنا يحذكونها به ، فلم أقدر عليه ، فبت البارحة وأنا مهموم ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول : لاتغتّم ولا تحزن ، إذا كان غدا فادخل علي علي ابن عيسى وأقره مني السلام وقل له : بعلامة أنك صليت علي عند قبري أربعة آلاف مرة ادفع لي مائة دينار عينا ، قال ابن مجاهد : فاغرورقت عينا علي بن عيسى بالدموع ، ثم قال : صدق الله ورسوله وصدقت أيها الرجل ، هذا شيء ماكان علم به الا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، يا غلام هات الكيس ، فأحضره بين يديه ، فضرب بيده اليه فأخرج منه مائة دينار ، وقال : هذه المائة التي قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه مائة أخرى للبشارة ، وهذه مائة أخرى هدية منا لك ، فخرج الرجل من عنده ، وفي كمة ثلاثمائة دينار »

وحدثني القائد الحاج أبو علي في شهر رمضان في سنة ثمان وستين وخمس مائة بحصن كيفا قال : «كنت بالموصل جالسا في دكان محمد بن علي بن مامة ، فاجتاز بنا رجل فقاعي (١٣٠) ضخم

غليظ الساقين فدعاه محمد وقال : يا عبد علي بالله حدث فلانا حديثك قال : أنا رجل أبيع الفقاع كما ترى ، فبت ليلة اربعاء وأنا

صحيح فانتبهت وقد انحل وسطي فلا أقدر على الحركة وييسرت
رجلاي ودقتا ، حتى بقيت الجلد والعظم فكنت أزحف الى وراء زين
الدين علي كوجك رحمه الله ، فأمر بحملي الى داره
فحملت ، وأحضر الأطباء وقال : أريد أن تـداواوا
هذا ، فقالوا : نعم نداويه ان شاء الله ، ثم اخذوا مسمارا فاحموه
ثم كوووا به رجلي فما حسست به ، فقالوا لزين الدين : ما نقدر على
دواء هذا ولا فيه حيلة ، فوهب لي دينارين وحمارا ، فبقي الحمار
عندي نحدوا من شهر ومات ، فعدت قعدت في طريقه ، فوهب لي
حمارا آخر فمات ، ووهب لي حمارا ثالثا فمات ، فعدت الى
سؤالي ، فقال لواحد من أصحابه : اخرج بهذا فارمه في
الخندق ، فقلت له : بالله ارمني على وركي فاني ما أحس فيها بما
يكون ، فقال : مأرميك الا على رأسك ، فاذا رسول زين الدين
رحمه الله قد جاءني فربني اليه - وكان الذي قاله من رمي
مزاحا - فلما أحضروني بين يديه أعطاني أربعة دنانير وحمارا .
فبقيت على ماأنا عليه الى ليلة رأيت فيها فيما يرى النائم كأن
رجلا وقف علي : وقال : قم ، قلت : من أنت ؟ قال : أنا علي بن
أبي طالب ، فقممت وقفت ، فأنبهت امرأتي وقلت : ويحك ، قد
أبصرت كذا وكذا ، فقالت : هأنت قائم ، فمشيت على رجلي وزال
ماكان بي ، ورجعت كما تراني ، فمضيت الى عند زين الدين الأمير
علي كوجك رحمه الله فقصصت عليه منامي ورأني قد زال ماراه
بي ، فأعطاني عشرة دنانير »

فسبحان الشافي المعافي

حدثني الشيخ الحافظ أبو الخطاب عمر بن محمد بن عبد الله بن
معمر العلوي بدمشق أوائل سنة اثنتين وسبعين وخمس مائة
قال : حكى لي رجل ببغداد عن القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي
ابن محمد الأنصاري الفرزي ، المعروف بقاضي المارستان ، أنه
قال : « لما حججت ، بينا أطوف بالبيت اذ وجدت عقدا من اللؤلؤ
فشددته في طرف احرامي ، فبعد ساعة سمعت انسانا يذشده في

الحرم وقد جعل لمن يراه عليه عشرين ديناراً ، فسأله علامة ماضاع له فأخبرني ، فسلمته اليه ، فقال لي : « تجيء معي الى منزلي لأدفع اليك ما جعلته لك » فقلت : مالي حاجة الى ذلك ، ومادفعته اليك بسبب الجعالة ، وأنا من الله بخير كثير ، فقال : « ولم تدفعه الا لله عز وجل ؟ » فقلت : « نعم » فقال : « استقبل بنا الكعبة وأمن على دعائي » فاستقبلنا الكعبة فقال : « اللهم اغفر له وارزقني مكافأته » ثم ودعني ومضي .

ثم اتفق انني سافرت من مكة الى ديار مصر ، فركبت في البحر متوجها الى المغرب ، فأخذت الروم المركب وأسرت فيمن أسر ، فوقع في نصيب بعض القسوس ، فلم ازل أخدمه الى أن دنت وفاته ، فأوصى باطلاقي .

فخرجت من بلد الروم فصرت الى بعض بلاد المغرب ، فجلست اكتب على دكان خباز وكان ذلك الخباز يعامل بعض تناء تلك المدينة (١٣١) فلما كان في رأس الشهر جاء غلام ذلك الثاني الى الخباز فقال « سيدي يدعوك لتحاسبه » فاستدعيني معه ومضينا اليه فحاسبه على رقاعه ، فلما رأى معرفتي في الحساب وخطي طلبني من الخباز فغير ثيابي وسلم الي جباية ملكة وكانت له نعمة ضخمة ، وأخلى لي بيتاً في جانب داره .

فلما مضت مديدة قال لي : « يا أبا بكر ما رأيك في التزويج ؟ » قلت : « ياسيدي انا لا أطيق نفقة نفسي ، فكيف أطيق النفقة على زوجة ؟ » قال : « أنا أقوم عنك بالمهر والمسكن والكسوة وجميع ما يلزمك » فقلت : « الأمر لك » فقال : « يا ولدي ان هذه الزوجة فيها عيوب شتى - ولم يترك شيئاً من العيب في الخلقة من رأسها الى قدمها الا ذكره لي ، وأنا أقول : « رضيت - وباطني في ذلك كظاهري ، فقال لي : « الزوجة ابنتي » وأحضر جماعة وعقد العقد .

فلما كان بعد أيام قال لي : « تهيأ لدخول بيتك ، ثم أمر لي بكسوة فاخرة ودخلت الى دار فيها التجميل والآلات ، ثم أجالست في المرتبة ، وأخرجت العروس تحت النمط فقامت لتلقيها ، فلما كشفت النمط رأيت صورة مارأيت في الدنيا أجمل منها ، فهربت من الدار خارجا ، فلقيني الشيخ وسألني عن سبب هجري ، فقلت : « إن الزوجة ماهي التي ذكرت لي فيها من العيوب ماذكرت » فتبسم وقال : يا ولدي هي زوجتك ، وليس لي ولد سواها ، وانما ذكرت لك ماذكرت لئلا تستقل ماتراه ، فعدت وجليت علي .

فلما كان من الغد جعلت أتأمل ماعليها من الحلي والجوهر الفاخر ، فرأيت من جملة ماعليها العقد الذي وجدته بمكة ، فعجبت من ذلك ، واستغرقني الفكر فيه ، فلما خرجت من البناء استدعاني وسألني عن حالي وقال : « جدع الحلال انف الغيرة » فشكرته على مافعله معي ، ثم استولى علي الفكر في العقد ووصله اليه ، فقال لي : « فيم تفكر ؟ » فقلت : « في العقد الفلاني ، فاني حججت في السنة الفلانية فوجدته في الحرم أو عقدا يشبهه ، فصاح وقل : « أنت الذي رددت علي العقــــــــــــد ؟ » قلت : « أنا ذاك » فقال : « أبشر ، فإن الله قد غفر لي ولك ، فاني دعوت الله سبحانه في تلك الساعة أن يغفر لي ولك وأن يرزقني مكافأتك ، وقد سلمت اليك مالي وولدي وما أظن أجلي الا وقد قرب » ثم أوصى الي ومات بعد مدينة قريبة رحمه الله .»

الشفاء بطرق غريبة

وحدثني الأمير سيف الدولة زنكي بن قراجا ، رحمه الله ، قال : « دعانا شاهنشاه بحلب - وهو زوج أخته - فلما اجتمعنا عنده ذهبنا الى صاحب لنا كنا نعاشره وننادمه خفيف الروح طيب العشرة فاستدعيناه ، فحضر ، فعرضنا عليه الشرب فقال : « أنا محتم أمرني الطبيب بالحمية أياما حتى تشق هذه السلعة ، وكان في مؤخر رقبتة سلعة كبيرة ، فقلنا : « وافقنا اليوم وتكون الحمية من غد » ففعل وشرب معنا الى آخر النهار ، فطلبنا من شاهنشاه شيئا نأكله ، فقال : « ما عندي شيء فلاجبناه حتى أجابنا الى أن يحضر لنا بيضا ذقليه على المنقل ، فأحضر البيض ، وأحضرنا صحنا وكسرنا البيض وأفرغنا ما فيه في الصحن ، ووضعنا المقل على المنقل ليحمى ، فأشرت الى ذلك الرجل الذي في رقبتة السلعة أن يشرب البيض ، فرفع الصحن على فمه ليشرب بعضه فأنساب جميع ما في الصحن في حلقه فشربه ، وقلنا لصاحب الدار : عوضنا عن البيض ، فقال : والله ما فعل ، فشربنا ، ثم افترقنا .

فانا في السحر في فراشي والباب يقرع ، فخرجت جارية تنتظر من بالباب ، فاذا هو صديقنا ذلك ، فقلت أحضره فجاءني وأنا في الفراش وقال : « يامولاي ، تلك السلعة التي كانت في رقبتني نهب ، وما بقي لها أثر ، فنظرت موضعها فاذا هو كغيره من جوانب رقبتة ، فقلت : « أي شيء انهبها ؟ » قال : « الله سبحانه ، وما عرفت أنني استعملت شيئا ما كنت استعمله غير شربي لذلك البيض النقي » فسبحان القادر المبلي المعافي .

وكان عندنا في شيزر اخوان اسم الأكبر مظفر والآخر مالك بن عياض من أهل كفر طاب ، وهما تاجران يسافران الى بغداد وغيرها من البلاد ، ومظفر أدركه قيلة عظيمة فهو منها في

تعب ، فسار في قافلة على السماوة الى بغداد ، فنزلت القافلة بحي من احياء العرب ، فضيقوهم بطيور طبخوها لهم ، فتعشوا وناموا ، فانتبه ابنه رفيقه الذي في جانبه وقال له : « أنا نائم أو مستيقظ ؟ » قال : « مستيقظ لو كنت نائما ماتحدثت » قال : « تلك القيلة قد نهدت وما بقي لها أثر » فنظر فاذا هو قد عاد كغيره الى الصحة .

فلما اصبحوا سألوا العرب النين أضفاهوهم أي شيء أطعموهم ، قالوا : « نزلتم بنا ودوابنا عازبة ، فخرجنا أخذنا فراخ غريان طبخناها لكم » فلما وصلوا بغداد دخلوا المارستان وحكوا للمتولي المارستان حكايته ، فنفذ حصل فراخ غريان وأطعمها لمن به هذا المرض ، فلم تدفعه ولا أثرت فيه ، فقال : « ذلك الفراخ التي أكلها كان زقها أبوها أفاعي فلذلك كان ندفعها » .

ومما يشاكل ذلك ان رجلا أتى المختار بن بطلان (١٢٢) الطبيب المشهور بالمعرفة والعلم والتقدم في صجنة الطب ، وهو في دكانه بحلب ، فشكا اليه مرضه فراه قد استحكم به الاستسقاء وكبر بطنه ، ودقت رقبته ، وتغيرت سحنته ، فقال له : « يا ولدي ، مالي والله فيك حيلة ، ولا بقي الطب ينجع فيك » فانصرف .

ثم بعد مدة اجتاز به وهو في دكانه وقد زال عنه ما كان به من المرض ، وضمير جوفه وحسنت حاله ، فدعاه ابن بطلان فقال : « ما انت الذي حصرت عندي من مدة وبك الاستسقاء وقد كبر بطنك ودقت رقبته ، وقلت لك : مالي فيك حيلة ؟ » قال : « بلى » قال : « فيماذا تداويت حتى زال ما كان بك ؟ » قال : « والله ماتداويت بشيء ، أنا رجل صعلوك مالي شيء ولا لي من يدور بي سوى والدتي عجوز ضعيفة كان لها في نين خل ، فكانت كل يوم تطعمني منه بخبز » ، فقال له ابن بطلان : « بقي من الخل شيء ؟ » قال : « نعم » قال : « امش معي ارني »

البن الذي فيه الخل « فمشى بين يديه الى بيته أو وقفه على بن الخل ، فافرج ابن بطلان ماكان فيه من الخل فوجد في اسفله افعيين قد تهراتا فقال له : « يا بني ماكان يقدر يداويك بخل فيه افعيان حتى تبرأ الا الله عز وجل »

وكان لهذا ابن بطلان اصابات عجيبة في الطب فمن ذلك أن رجلا أتاه ، وهو في دكانه بحلب ، والرجل قد انقطع كلامه فلا يكاد يفهم منه انا تكلم ، فقال له : « ما صنعتك ؟ » قال : « أنا مغربل » فقال : « أحضر لي نصفا رطل خل حاذق » فأحضره ، فقال : « اشربه » ، فشربه وجلس لحظة فذرعه القيء ، فتقيأ طينا كثيرا في ذلك الخل ، فانفتح حلقه واستوى كلامه ، فقال ابن بطلان لابنه وتلاميذه : « لاتداوا بهذا الدواء أحدا فتقتلوه ، هذا كان قد علق بالمريء من غبار الغربة تراب ماكان يخرج الا الخل » .

وكان ابن بطلان ملازما لخدمة جدي الأكبر ابي المتوج مقلد بن نصر بن منذر فظهر في جدي ابي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منذر ، رحمه الله ، وضع وهو صبي صغير ، فأقلق ذلك أباه وأشفق عليه من البرص ، فأحضر ابن بطلان وقال له : « ابصر ماقد ظهر في جسم علي » ، فنظره وقال : « اريد خمس مائة دينار حتى أداويه وأذهب هذا عنه » ، فقال له جدي : « لو كنت داويت عليا ماكنت رضىيت لك بخمسة مائة دينار » فلما رأى الغضب من جدي ، قال : « يامولاي ، أنا خادمك وعبدك وفي فضلك ، ماقلت ماقلت الا على سبيل المزح ، وهذا الذي بعلي بهق الشباب ، واذا أدرك زال عنه ، فلا تحمل منه هما ، ولا يقول لك سواي : « أنا أداويه ويتسوق عليك ، فهذا يزول عند بلوغه » فكان كما قال .

وكان في حلب امرأة من وجوه نساء حلب ، يقال لها برة لحقها برد في رأسها ، فكانت تعمل عليه القطن العتيق والقلنوسة والمخملة والمناديل حتى تصير كأن على رأسها عمامة كبيرة وهي تستغيث من

البرد ، فأحضرت ابن بطلان وشكت اليه مرضها فقال : « حصلي في غد خمسين مثقالا من كافور رياحي عارية أو مكري من بعض الطيبين ، فهو يعود اليه بأسره » ، فحصلت له الكافور ، ثم أصبح القى كل ما على رأسها وحشا شعرها بذلك الكافور ، ورد على رأسها ما كان عليه من الدثار وهي تستغيث من البرد ، فنامت لحظة وانتبهت تشكو الحر والكرب في رأسها ، فألقى عنها شيئا شيئا مما كان على رأسها حتى بقي على رأسها قناع واحد ، ثم نفذ شعرها من ذلك الكافور ، ونهب عنها البرد وصارت تتقنع بقناع واحد .

وقد جرى لي بشيزر ما يقارب ذلك ، لحقني برد عظيم وقشعريرة من غير حمى وعلي الثياب الكثيرة والفرو ، ومتى تحركت في جلوسي ارتعدت وقام شعر بدني وتجمعت ، فأحضرت الشيخ أبا الوفاء تميما الطبيب فشكوت اليه ما أجد ، فقال : « احضروا لي بطيخة هندي » فأحضرت فكسرها وقسال لي : « كل منها ما استطعت » قلت : « يا حكيم أنا في الموت من البرد ، والزمان بارد ، كيف أكل هذه مع بردها ؟ » قال : « كل كما أقول لك » فأكلت : فما انتهى أكلي منها حتى عرقت وزال ما كنت أجده من البرد ، فقال لي : « الذي كان بك من غلبة الصفراء ما كان من برد حقيقي » .

وقد تقدم ذكر شيء من غريب الأحلام ، وقد أوردت في كتابي المترجم ب « كتاب النوم والأحلام » من ذكر النوم والأحلام ، وما قيل فيه وفي أوقات الرؤيا وفي أقوال العلماء فيها ، واستشهدت على أقوالهم بما ورد فيها من أشعار العرب ، ووسعت الشرح ، وأشبعته فيه المعنى ، فما حاجة الى ذكر شيء منه ها هنا ، لكنني ذكرت هذا الخبر واستظرفته .

كان لجدي سيد الملك أبي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن مذقذ ، رحمه الله ، جارية يقال لها لؤلؤة ربت والذي مجد البين أبا

سلامة مرشد بن علي ، رحمه الله ، فلما كبر وانتقل عن دار والده انتقلت معه . فرزقني ، فربتني تلك العجوز الى ان كبرت وتزوجت وانتقلت من دار والدي ، رحمه الله ، فانتقلت معي ، ورزقت الاولاد فربتهم ، وكانت ، رحمها الله ، من النساء الصالحات صوامة قوامة . وكان يلحقها القولنج وقتا بعد وقت ، فلحقها يوما من الايام واشتد بها حتى غاب ذهنها ، وأيسوها ، فبقيت كذلك يومين وليلتين ، ثم افاقت فقالت : « لا اله الا الله ، ما أعجب ماكنت فيه ، لقيت أمواتنا جميعهم وحدثوني بالعجائب وقالوا لي في جملة ما قالوا : « إن هذا القولنج ما يعود يلحقك » ، فعاشت بعد ذلك المدة الطويلة لم يلحقها قولنج .

وعاشت حتى قاربت المائة سنة ، وكانت محافظة لصلواتها ، رحمها الله . فدخلت اليها في بيت أفردته لها من داري وبين يديها طست وهي تغسل منديلا للصلوات ، فقلت : « ما هذا يا أمي؟ » قالت : « يا بني ، قد مسكو هذا المنديل وايديهم ذفرة من الجبن ، وكلما غسلته قد فاحت منه رائحة الجبن » ، قلت « أريني الصابونة التي تغسلين بها » . فأخرجتها من المنديل فاذا هي قطعة جبن ، وهي تقطن أنها صابون ، وكلما عركت ذلك المنديل بالجبن قد فاحت رائحته ، قلت : « يا أمي ، هذه جبنة ! ما هي صابونة » ، فنظرتها وقالت : « صدقت ، يا بني ، ما ظننتها الا صابونا » . فتبارك الله اصدق القائلين : « ومن نعمه ننكسه في الخلق » (١٣٣)

الاطالة تجلب الملالة ، والحوادث والطوارئ اكثر من ان تحصر ، والرغبة الى الله ، عز وجل في السستر فيما بقي من الحياة ، والرحمة والرضوان عند موافاة الوفاة ، فانه سبحانه اكرم مسؤول ، وأقرب مأمول .

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله وسلامه .